



## الفصل السابع

### لقاء مع ذي الحجم الصغير

الحادي والثلاثون من كانون الثاني عام ١٩٩٧م



يتذكّر الدكتور ديفغو شفارتزن تاريخ الموعد الأول بدقة؛ إنه الحادي والثلاثون من كانون الثاني، اليوم الذي يصادف يوم ميلاده. قابلت في ذلك اليوم ليونيل أول مرّة. كان عمره تسع سنوات ونصف السنة، وقد أحضره أبواه إلى عيادة الغدد والباطنية، الموسومة بالرقم 1764، في شارع كوردوبا بوسط روزاريو؛ لاستشارة الطبيب المتخصّص بشأن عملية النمو المحدودة التي وسمت ثالث أبنائهما، وسبّبت لهم شعورًا بالقلق.

يتذكّر الطبيب هذا الأمر جيدًا، وفي ذلك يقول: «كانت الاستشارة تتعلّق ببنيته الصغيرة؛ وهو أمر أراه مرّات عدّة يوميًا».

كان طول ليو يبلغ 1,27 متر، ولم يكن بعدد قد أصبح نجمًا أو لاعبًا مشهورًا، حتى إنه لم يبلغ مستوى الاحتراف؛ إذ كان يلعب وقتئذٍ ضمن فرق الفئات العمرية بنادي نيولز. «أنا من مشجعي المجدومين منذ الصغر (هناك ما يُثبت هذا الأمر؛ صورة لابنه تحت زجاج المكتب، التقطت في مباراة أحرز فيها فريق الأحمر والأسود هدفًا في مرمى فريق بوكا جونيورز). وقد ساعدني





## ميسي

ذلك على إنشاء علاقة طيبة بالمريض. كنّا نتحدث عن كرة القدم، التي كانت الموضوع الوحيد الذي كسر حاجز الخجل عند هذا الفتى».

مواعيد عدة، تقصّ دام أكثر من عام، فحوص معقّدة، تحاليل وعمليات بيوكيميائية. «قمنا بذلك كلّه؛ لأنّه كان السبيل الوحيد لتحديد ما إذا كانت المشكلة تتعلّق بالهرمونات، أم أنّها مجرد حالة ممّا نسمّيها «النمو المتأخّر»؛ أيّ، طفل يتأخّر نموه مقارنة بأقرانه، لكنّه يواصل النمو في نهاية المطاف».

شرح الطبيب لنا هذا الأمر عن طريق الإشارة إلى التواريخ والمُدّد الزمنية في سجلّ مريض ما، مُبيّنًا الوقت الذي يستغرقه تشخيص مثل تلك الحالات (نقص هرمون النمو). وفي ذلك يقول: «لأنتج الغدد هرمون النمو إطلاقًا. يمكن تبسيط شرح هذه الحالة بتشبيهها بحالة مريض السكري الذي لا يُنتج بنكرياسه الأنسولين أبدًا. وبالنسبة إلى حالة ليو، فإنّه في حاجة إلى مادة تساعد على النمو. الفرق بين هاتين الحالتين هو أنّ سبعة في المئة من سكان العالم يعانون مرض السكري، في حين تُعدّ حالة ميسي نادرة جدًّا؛ إذ تُظهر الإحصائيات أنّها تصيب واحدًا من كلّ عشرين مليون شخص».

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الحالة ليست وراثية. انظر إلى أخويه، أو حتى إلى أخته الصغرى ماري سول، التي تُعدّ طويلة هي الأخرى».

وفيما يخصّ كيفية تعامل ليو مع ذلك الأمر، قال الطبيب: «أذكر أنّه كان يتعامل مع حالته المرضية بصورة جيدة؛ إذ تقبّل أنواع الفحوص جميعها – حتى أشدها وطأة – والعلاج على نحو حسن. وقد ساعدته عائلته كثيرًا على ذلك، فقد كانت عائلة من الطراز الرفيع».

وحين حُدّد موضع الخلل، بدأ اختصاصي الغدد الصم برنامجًا للعلاج بهرمون النمو؛ حقنة تحت الجلد يوميًا، مدّة تتراوح من ثلاث إلى ست سنوات؛ حتى يكمل المريض نموه بصورة كافية.



أمّا بالنسبة إلى تقييم مدى التطوّر في حالة المريض، وكيفية قياس النمو وتعرّف حدّه الأقصى، فإنّ ذلك يكون بتصوير اليد بوساطة الأشعة السينية. وقد دأب الطبيب على عرض الصور أمامنا في مراحل التطوّر المختلفة التي مرّ بها ليو: في سنّ التاسعة، والعاشر، والحادية عشرة، وصولاً إلى سنّ الثامنة عشرة. وقد لفت انتباهنا المساحة الفارغة بين العظمة والأخرى، التي قال عنها الطبيب: إنّها سوف تختفي حين تبلغ عملية النمو حدّها الأقصى لدى المريض.

أضاف بعدها قائلاً: «ليس بمقدورنا التعلّب على علم الوراثة. ولكن، يمكننا تقديم المساعدة في حال ظهرت بعض التعقيدات. أوّد التأكيد أنّ حالة نقص هرمون النمو تُلازم المريض طوال حياته. لذا، يتعيّن علينا التّدخّل للتخفيف من وطأة هذا الأمر».

لم تكن حالة ميسي تتطلّب عمل اختبارات وفحوص. فهو لم يكن فأر تجارب كما كتب أحدهم ذات مرّة. بدأ صبر الطبيب ينفد، وهو يقول بصوت جهير: «لم يكن الأمر تجربة قطّ. لطالما استُخدم هرمون النمو في حالات مشابهة سنوات طويلة؛ نحو ثلاثين عاماً على وجه التحديد. وقد كان يُستخرج - فيما مضى - من جثث الموتى، إلّا أنّ ذلك كان يزيد من احتمال الإصابة بجنون البقر. لذا، فقد عبّ دل عن ذلك، وأصبح يُنتج عن طريق الهندسة الجينية منذ ثمانينيات القرن العشرين. ولم يثبت - حتى هذه اللحظة - وجود أيّ أعراض جانبية على المدى البعيد. وإن لم نواجه أيّ مشكلة في أثناء معالجة الحالات الشبيهة بحالة ميسي، حيث كان لزاماً منحه ما ينقصه».

وفي معرض ردّه على سؤال عن سبب تحريم هرمونات النمو، وعدم انتشارها في أوساط الرياضيين عند الحديث عن المنشطات؛ قال الطبيب:





## ميسي

«تُسهِم الهرمونات في حال أُعطيَت لشخص بالغ لا يعاني أيّ نقص أو خلل ما (أيّ شخص لديه معدلات إفراز طبيعية، وستيرويدات ابتنائية)، في زيادة الكتلة العضلية، والتقليل من الألياف الدهنية؛ ما يزيد من إنتاج الطاقة الحركية، وسرعة الأداء».

لكنّ الأخطار التي تُهدّد سلامة المرء عند تعاطيها كبيرة؛ إذ يمكنها التّسبّب في كثير من الأعراض، مثل: احتباس السوائل، وفرط نشاط الغدة الدرقية، وارتفاع معدل السكر في الدم، وارتفاع الضغط داخل الجمجمة، فضلاً عن احتمال ظهور الأورام.

وعلى الرغم من ظهور كثير من التكهّنات والمخاوف ذات الصلة بهذا الموضوع؛ سواء في الأرجنتين أو في إسبانيا، لكن هناك أمراً كُتب عنه الكثير - من دون تحقّق، أو داعٍ غالباً-؛ هو تكلفة العلاج التي قد تصل إلى نحو 600,000 بيزو أرجنتيني (100,000 دولار أمريكي تقريباً) سنوياً.

يُعدّ هذا المبلغ كبيراً، وقد يكون هو السبب وراء مغادرة عائلة ميسي إلى إسبانيا، من باب أنّ نادي برشلونة كان هو الوحيد الذي أظهر استعداداً للتكفّل بنفقات العلاج.

«لطالما لفتت قصته انتباهي، حينما كانت وسائل الإعلام تُصرّح بأنّ والده سافر به؛ لأنّ أحداً لم يتكفّل بعلاجه هنا. مع أنّه من غير المؤكّد أنّ الجميع رفض ذلك فعلاً؛ إذ تكفّل الضمان الاجتماعي ومؤسسة أسيندار بعلاج الفتى. ولم يتضح - حتى هذه اللحظة - ما إذا كان ذلك هو سبب مغادرتهم البلاد حقاً. فإذا كان الوالدان مشمولين بالضمان الاجتماعي، أو لديهما تأمين صحي، فإنّ البرنامج الصحي الإجباري سيتكفّل بالعلاج. وفي حال لم يكونا مشمولين





بأحدهما، فيستعان باللجنة الاستشارية الوطنية التي تُعنى بالأطفال الذين يعانون نقص هرمون النمو، وهي جهة تُقدِّم العلاج مجاناً منذ عام 1991م».

هذه رواية تختلف عن تلك التي ترويها عائلة ميسي؛ إذ قال خورخي (والد ليو): إنَّ الضمان الاجتماعي ومؤسسة أسيندار توقفتا عن دفع كامل التكاليف بعد سنتين من بدء العلاج. ثمَّ وافقت إدارة نادي نيولز على تغطية جزء من التكاليف (واحدة من حقتين)؛ لعلمها بالمستقبل الواعد الذي ينتظر ليو. ولكن، وبصورة تدريجية، بدأت الدفعات تصل متأخرة. وفي ذلك يقول خورخي، الذي لم يألُ جهداً في إيجاد حلٍّ للمشكلة: «لقد راجعناهم مراراً للحصول على المال، لدرجة أنَّ زوجتي ضاقت ذرعاً بذلك، وقالت: إنها لن تُطالب بأيِّ مال بعد الآن، وهذا ما كان فعلاً».

يتذكَّر خورخي الأمر قائلاً: «كان نادي ريفر بلايت قد افتتح مكتباً في روزاريو. وكانت تلك فرصة للفتى، ووسيلة للضغط على نادي نيولز. فذهبنا إلى بوينوس آيرس حيث استعدَّ ليو لعرض مهاراته وقدراته.

تدرَّب ليو في موقع النادي بحِّي بلغرانو، وحين أنزلوه إلى الملعب في مبارياته الأولى، أدركوا مدى مهارته وتميُّزه في الحال، وأنَّه لم يكن مجرد فتى هزيل. ثمَّ قالوا لي: نريده. ولكن، يتعيَّن عليك البدء بإجراءات انتقاله إلى النادي بصورة رسمية، بعد موافقة نادي نيولز على التخلِّي عنه. لم يرغب القائمون على النادي الخوض في مشكلات مع نادي نيولز. لذا، لم نَمضِ قُدماً في الموضوع. وحين علم إداريو نادي نيولز بالأمر طلبوا إليَّ الإبقاء على ليو، وقدموا المزيد من الوعود. بعدها ظهر نادي برشلونة في دائرة الأحداث...».

وبعد توضيح الأمر بصورة أو أخرى، تبيَّن أنَّ عائلة ميسي تتفق مع سفارتزن في «أنَّ مسألة نقص هرمون النمو وعلاجها لا تتعدَّى كونها مجرد حكاية، وأنَّ المهم حقاً هو مهارات الفتى في كرة القدم».





## ميسي

في هذه اللحظة، ينهض الطبيب عن مقعده، ويخرج من وراء مكتبه، ويُطلق العنان لمجموعة من التصدّرات التي تجول في مخيلته بشأن رجل شغوف بكرة القدم، فيتحدّث عن مدى إعجابه بالركض السريع، والتحكّم في الكرة، وعن «قدرات ليو التي لا يستطيع أحد تحديدها وتعرّف كُنْها، وعن غيرة سكان بوينوس آيرس (البورتينوس) وغيظهم من أنّ لاعبًا عظيمًا مثله لم يخرج من رحم مدينتهم؛ فهنا يتعيّن عليك اللعب لأحد قطبي العاصمة إذا رغبت في إحراز النجاح. فباتيستوتا على سبيل المثال، كان لاعبًا لنيولز، لكنّ شهرته لم تبلغ الآفاق في الأرجنتين إلّا عندما لعب لبوكا جونيورز».

لندع عنّا كرة القدم، ولنعد قليلاً إلى الوراثة. فقد يكون موضوع العلاج بهرمون النمو مجرد حكاية تُحكى. ولكن، انظر إلى مقال نُشر أخيراً في صحيفة لا كابييتال يحمل عنوان «يريدون تجربة دواء ميسي على أطفالهم». ورد في هذا المقال ما نصّه: «منذ أصبح العلاج الذي تناوله ميسي معروفاً للملأ، تحوّل هرمون النمو ليصبح دواءً سحرياً، يمكنه مساعدة الأطفال الصغار على النمو. يُعدّ موضوع أجسام الأطفال الهزيلة هاجساً يُورّق الأهل، خاصة عندما يذهب هؤلاء الأطفال إلى الروضة، وتبدأ مقارنتهم بأقرانهم. إنّ تلك المقارنة تُعدّ مغالطة ومجافاة للحقيقة؛ لأنّ معدل النمو غير ثابت.

وفي واقع الأمر، يُعزى سبب هذا الهزال إلى عوامل وراثية، وإلى سوء التغذية خلال أول سنتين من عمر الطفل، أو إلى تأخّر في عملية التطوّر والنمو، وهو أمر لا يمكن علاجه، لكنّ كثيراً من الآباء والأمهات يطلبون إلى الأطباء المتخصّصين الذين يُشرفون على حالة أبنائهم، العلاج نفسه الذي أُعطي لليون ميسي».

يحتج الطبيب على هذه المسألة قائلاً: «تلك هي الآثار السلبية للطريقة التي تتناول بها وسائل الإعلام علاجاً أُعطي للاعب كرة قدم مشهور، فضلاً



عن طريقة الفهم المغلوطة التي يتبعها الأهل والناس بصورة عامة. لم يكن ذلك ليحدث لو بقي الأمر محصورًا في علاقة الطبيب بالأهل والمريض.

يحتّم عليّ واجبي أن أنفّح عن الحقيقة الطبية التي تؤكّد أنّ ذلك العلاج لا يفيد الأطفال الذين لا يعانون نقصًا في الهرمونات، خاصة عند أخذ تكلفة العلاج المرتفعة (مقارنة بنتائجه غير المجدية) في الحسبان. لذا، يتعيّن على مَنْ يعانون نقص الهرمون الذي كان يعانيه ليو، تناول هذا العلاج. وما زلتُ أذكر أنّ ليو بدأ بتناول العلاج عام 1998م، حين كان طوله 1,27 متر، ثمّ أصبح طوله 1,69، الآن، بعد أن أكمل علاجه في برشلونة. وكلّي يقين أنّه لم يكن لينمو بهذا الشكل لولا العلاج الذي تناوله».

